

□ مقالة

المرجع الحكيم

نبوغ مبكر متمسك بالعروة الوثقى

□ بقلم: صلاح عبد الرزاق

الانتباه: الأبحاث والمقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الأفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

■ **المرجع الحكيم**

كان المرجع الحكيم شخصية غير تقليدية بالمعنى الكلاسيكي، فقد كان محباً للحوار ويجلس ويستمع ويتحدث بحيوية كبيرة.

هو السيد محمد سعيد نجل آيةالله السيد محمد علي بن السيد أحمد الحكيم. ويرقى نسباً إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهو السبط الأكبر للمرجع الأعلى السيد محسن الحكيم. وكان والده السيد أحمد الحكيم عالماً جليلاً ومجتهداً معروفاً.

ولد السيد محمد سعيد الحكيم في النجف الأشرف عام ١٩٣٦.

وقد حظي برعاية والده لما وجد فيه من الاستعداد والقدرة على البحث العلمي.

فياشر الوالد بتدريس ابنه محمد سعيد الدروس الفقهية المطلوبة في مناهج الحوزة العلمية حتى أنهى على يديه جل دراسة السطوح العالية.

في شبابه صحب كبار العلماء والفقهاء أمثال خاله السيد يوسف الطباطبائي الحكيم والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي والسيد علي بحر العلوم والشيخ صادق القاموسي والشيخ هادي القرشي وكان يحضر مجالسهم.

■ **دراسته وتدريسه في الحوزة العلمية**

نظراً لنبوغه المبكر عهد إليه المرجع محسن الحكيم بمراجعة موسوعته الفقهية (مستمسك العروة الوثقى) استعداداً لطباعتها، فقام بذلك خير مقام.

وكان السيد محمد سعيد يراجع الإمام الحكيم في بعض القضايا. فاكشف فيه الإمام الحكيم مدى تفوقه العلمي فطلب منه مراجعة بعض الأجزاء المطبوعة منها.

درس السيد محمد سعيد على أيدي كبار فقهاء النجف الأشرف وأبرزهم والده السيد محمد علي الطباطبائي الحكيم حيث درس اللغة والنحو والمنطق والبلاغة والأصول والفقه.

ودرس على يد جده لأمه المرجع محسن الحكيم أبواب الفقه. ودرس على المرجع الشيخ حسين الحلي الفقه والأصول.

كما درس لدى السيد الخوئي في علم الأصول لمدة عامين.

بعد أن أتم السيد محمد سعيد عدة دورات في تدريس مستوى السطوح العالية للدراسة الحوزوية، شرع في عام ١٩٦٨ بتدريس البحث الخارج علي كتاب (كفاية الأصول) للأخوند محمد كاظم الخراساني، وهو أشهر كتب الحوزة العلمية في أصول الفقه.

وأتّم الجزء الأول منه عام ١٩٧٢ حتى أتم الدورة الأصولية عام ١٩٧٩.

ثم بدأ بدورة أصولية ثانية رغم ظروف الاعتقال التي تعرض لها في الفترة بين عامي ١٩٨٢ إلى عام ١٩٩٠.

وقام بتدريس الفقه بمستوى البحث الخارج على كتاب (المكاسب) للشيخ الأنصاري في عام١٩٧٢ . وفي عام ١٩٨٢ بدأ بتدريس الفقه الاستدلالي على كتاب (منهاج الصالحين) للإمام محسن الحكيم.

وقد تخرج على يديه نخبة من علماء الحوزة العلمية حتى بلغ موقع المرجعية وصار أحد أربعة مراجع النجف الأشرف.

■ **المرجع الحكيم وأحداث خان النص**

قبل سجنه قد تم منع السيد محمد سعيد الحكيم من السفر من قبل النظام البعثي منذ وصوله للسطة عام ١٩٦٨. ولم يرفع عنه حتى عام ١٩٧٤ عندما سمح له بالسفر لحج بيت الله الحرام.

وبعد الحج بفترة أعيد منع السفر عليه مع المراقبة الشديدة.

في أحداث انتفاضة صفر عام ١٩٧٧ المتمثلة بقيام السلطة بمنع زوار الامام الحسين عليه السلام الذين كانوا يسبرون مشياً من النجف إلى كربلاء في زيارة الأربعين.فقامت قوات النظام البعثي باستخدام الطائرات والدبابات والمدركات في تفريقهم واعتقالهم ومن ثم سجنهم وإعدام بعضهم، وقد عرفت بأحداث خان النص حيث وقعت المصادمة مع الزوار.

■ **إصرار المرجع الحكيم على أداء زيارة الأربعين**

أصر السيد محمد سعيد الحكيم على المشي مع الزوار برفقة ثلة من فضلاء وشباب أسرة الحكيم ، والذين استشهد بعضهم فيما بعد، وواصلوا المسير حتى وصلوا حرم الامام الحسين عليه السلام رغم وجود سيطرات النظام وجيشه الكثيرة. وصارت قوات الأمن تلاحق جميع الشخصيات وقادة المواكب الذين شاركوا في الانتفاضة.

بعد عمليات القتل والاعتقال الجماعي للمشاركين في الزيارة، وصل لعلم السيد محمد سعيد أنه من المطلوبين للنظام. واضطر السيد محمد سعيد الحكيم إلى مغادرة بيته مع أبنائه للاختفاء عن عين السلطة. فأقام في أحد البيوت المهجورة لا يعلم به أحد سوى زوجته التي كانت تنردد عليه خفية بعيداً عن أژلام النظام وعيونه. وبقي مختفياً حتى أصدرت محكمة الثورة أحكامها بالاعدام والسجن على مجموعة من المعتقلين من الزوار، وإلى ما بعد غلق قضية خان النص.

■ **تصاعد الضغوط بعد سلطة صدام**

في ١٧ تموز ١٩٧٦ وصل صدام لسدة رئاسة الجمهورية، ودخل الشعب العراقي في محنة كبيرة وكابوس أشد ظلمة. فكانت الضغوط والملاحقات تتصاعد على العراقيين وخاصة طلاب وأساتذة الحوزة العلمية في النجف الأشرف التي كانت تغلق النظام بعد أن شاهد سقوط الشاه على يد الامام الخميني وما أحدثت من هزة عنيفة في المنطقة والعالم. وقد تعرض الشهيد محمد باقر الصدر للاعتقال ثم الإعدام في ٩ نيسان ١٩٨٠. كما تم تسفير عشرات الآلاف من العراقيين بحجة أن أصولهم إيرانية. ولم ينته عام ١٩٨٠ حتى شن صدام الحرب على الجمهورية الإيرانية والتي استمرت ثمان سنوات وراح ضحيتها مليون عراقي.

■ **صدام والمؤتمر الإسلامي الشعبي**

أثناء الحرب على إيران، حاول صدام تحشيد الرأي العام الإسلامي ضد



والاعدامات والمقابر الجماعية التي غطت المدن الشيعية لكن النظام صب جام غضبه على أسرة آل الحكيم السجناء عنده. وتعرض السيد محمد سعيد الحكيم إلى صنوف التعذيب رغم ضآلة جسده وكبر سنه لكنه واجه الجلال بصمود وصبر.

■ **إطلاق سراح أسرة آل الحكيم**

في حزيران ١٩٩١ أصدر صدام قراراً بالعفو عن المسجونين فشمّل آلافاً من السجناء ومن بينهم أسرة آل الحكيم. عاد السيد محمد سعيد الحكيم إلى نشاطه في العمل التبليغي وتوزيع الكتب وإقامة الدورات والمشاريع الثقافية. كما انشغل بالدروس الحوزوية رافضاً التصدي للمرجعية بوجود السيد أبو القاسم الخوئي. وقد سمح له النظام بمغادرة العراق للعلاج في لندن، فزارها وبقي عدة أسابيع لكنه عاد إلي العراق رغم إصرار بعض المؤمنين عليه بالبقاء خارج العراق.

■ **التصدي للمرجعية**

بعد رحيل السيد الخوئي عام ١٩٩٢ كثر الرجوع إلى سماحته والطلب منه بالتصدي للمرجعية من قبل المؤمنين وفضلاء الحوزة العلمية من داخل العراق وخارجه فاقنع بذلك وأعلن عن مرجعيته ورتب مكتبه وممثليه ودروسه وطلابه. وأبدي سماحته اهتماماً ملحوظاً بالجماهير العراقية وكذلك الجاليات العراقية المقيمة في أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا والبلدان المسلمة الأخرى. كما اهتم بأمور المؤمنين في الباكستان وأفغانستان وآذربايجان والقفقاس. وكان لا يتوانى في إصدار البيانات والتنديد بعمليات القتل العشوائي ضد الشيعة وتفجير مساجدهم وحسينياتهم في الباكستان.

ويرسل الرسائل إلى الرؤساء فيها مثل نواز شريف. كما تعاون مع رئيس جماعة نهضة العلماء في أندونيسيا عبد الرحمن وحيد في إفشال مخطط الوهابية لتكفير الشيع ومنع نشاطاتهم هناك عام ١٩٩٥. وأبلغ سماحته الحكومة الماليزية بقلق المرجعية الدينية بسبب اعتقال عدد من الشيعة هناك بتأثير الجماعات المتطرفة. وتم التنسيق مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان حول ذلك الأمر. واستنكر سماحته تصريحات مفتي الأزهر لتكفير الشيعة. واتصل بالشيخ شمس الدين للضغط على مفتي الأزهر لتلافي تلك التصريحات ومنع تكرارها.

كان أحد المرجعيات البارزة للمسلمين الشيعة، ليس في العراق وحسب، بل كان له مقلدون في دول الخليج العربي، وإيران، ولبنان، وباكستان، وأفغانستان، والهند، فضلاً عن الولايات المتحدة الأميركية، والقالة الأوروبية. وقد أيد سماحته وثيقة مكة المكرمة عام ٢٠٠٦ التي كتبت بإشراف مكتب السيد السيستاني وإطلاع المرجع الأعلى. وقد وقّع عليها عدد من العلماء والمفكرين العراقيين من الشيعة والسنة والتي اشتملت على عشرة بنود تؤكد على الاحترام المتبادل بين السنة والشيعة فيما يتعلق بالعقائد والأموال والأنفس والمساجد والحسينيات والأوقاف وحرمة قتل المسلم بسبب عقيدته ومذهبه. كما أكدت على تحقيق المصالحة الوطنية في العراق ومواجهة الجماعات المسلحة.

■ **وفاة المرجع الحكيم**

في يوم الجمعة ٢٥ محرم عام ١٤٢٣ هـ الموافق ٣ أيلول ٢٠٢١ رحل إلى ربه عن عمر ناهز ٨٥ عاماً اثر إصابته بسكتة قلبية، بعد ثلاثة أيام من إجراء عملية جراحية في مستشفى الحياة الأهلية بالنجف الأشرف. وقد نقلت جنازته من مكتبه إلى كربلاء المقدسة أولاً حيث شارك الآلاف في تشييع جنازته. ثم نقلت إلى النجف الأشرف ليقام تشييع آخر ثم جرت مراسم الصلاة على الميت في صحن الامام علي عليه السلام شارك فيه عشرات الآلاف ضمنهم أساتذة وطلاب الحوزة العلمية وشخصيات سياسية وحكومية وعسكرية. وتم دفن الفقيد في غرفة رقم ٢٨ في الصحن المطهر. وفيما أعلنت الحكومة الاتحادية في بغداد الحداد العام ليوم واحد ، قررت الحكومة المحلية في النجف الاشرف حدادا لمدة ثلاثة أيام.

■ **مراسلاتي مع المرجع الحكيم**

كان المرجع الحكيم يولي اهتماماً كبيراً بالجاليات العراقية المقيمة في المهجر. وكان مكتبه يقوم بإرسال الخطابات والبيانات في المناسبات الإسلامية والأحداث التي يكون الشيعة ضحيتها. وكنت أستلم رسائله وتوجيهاته بالفلاس وهو الوسيلة الأسرع آنذاك في التسعينيات حيث لا وجود للواتساب وغيره من برامج المنصات الاجتماعية. نعم كان الإيميل موجوداً لكن النظام العراقي كان يمنع استخدام الإيميل أو البريد الالكتروني والحواسيب والطابعات الشخصية، ويمنع بيع أجهزة الاستنساخ حيث

يقتصر استخدامها على مكاتب معينة مرتبطة بأجهزة الأمن.

■ **توجيهاته للمغتربين**

وكان سماحته يبعث توجيهاته قبل شهر محرم الحرام وشهر رمضان وغيرها من المناسبات الإسلامية. وكان لا يتردد في إظهار تضامنه وتعاطفه مع المؤمنين خارج العراق. حيث يقول في بعض توجيهاته أنه: (لا يزال في ألم وحسرة لمعاناتهم في غربتهم، ولفرافهم لبلادهم وأهاليهم. ولا زلنا نبتهل إلى الله جل شأنه في أن يعينكم جميعاً في محتكم، ويلطف بكم في بليّتكم، ويحسن لكم التيسير، ولا يخذلكم في العسير ، وأن يعينكم ولا يكلكم إلى أنفسكم في الأمور إنه الرؤوف بالمؤمنين، الرحيم بهم).

وكان يوصي بالتمسك بالقيم والأخلاق الإسلامية التي تعكس منهج أهل البيت عليهم السلام. الاهتمام بالأجيال القادمة في المهجر ويؤكد على أهمية العناية بالجيل الثاني والثالث في المهجر، حيث يقول سماحته: (عليكم بالاهتمام بالجيل الجديد الذي ولد أو نشأ في بلد الغربة. هذا الجيل الذي لم يعيش الجو الذي عشتموه، ولا ألف المفاهيم التي ألفتموها، بل عاش في جو بعيد عن ذلك... فعليكم أن تغذّوهم بأصول الإسلام والايمان وتعاليم الدين الحنيف ، والخلق الإسلامي الرفيع... وتبنيوا لهم الجو المناسب في البيت وفي مجالسكم ومجامعكم ومعاهدكم، لينشّدوا لتلك الجذور الطيبة والأصول الثمرة، حتى يعيشوها في وجدانهم وعقولهم).

ويتناول سماحته العلاقة بين المؤمنين والمجتمعات الغربية المضيفة لهم فيقول:

(كما أكد أئمتنا عليهم السلام على حسن مخالطة الناس ومعاشرتهم بالمعروف واحترام مشاعرهم. وأنتم أيها المؤمنون المغتربون في بلا تغدو أهلها احترام القانون، ومراعاة النظام وتقديسه، وهم ينظرون إليكم كضيوف في بلادهم، ونزلاء عندهم ، يرون أنهم قد أحسنوا إليكم حين قبلوكم واستضافوكم. وكلما ظهر منكم الالتزام بالنظام واحترام القانون كبرتم في نفوسهم، وفرضتم احترامكم عليهم، واحترام دينكم ومبادئكم الشريفة).

■ **مسائل الابتلاء في الغرب**

وكان سماحته يجيب على استفتاءات المغتربين فيما يتعلق بأمور الخاصة بدول المهجر مثل حكم الصيام في نهار يمتد إلى ٢٥ يوماً في النرويج. وكذلك أحكام الأطعمة أو المواد المضافة إليها، والذبح الحلال وعلاج أمراض العقم وأطفال الأنابيب ومنع الحمل، ومصافحة النساء الأجنبية. إضافة إلى أحكام الفوائد والبنوك والقرروض. كما حذر سماحته من مشاهدة المسلسلات المكسيكية التي تجعل الخيانة الزوجية شيئاً طبيعياً.

ومن الإصدارات الرائعة بهذا الصدد كتابه (مرشد المغتربين) المخصص لمسائل الهجرة وفقه المهجر. وهو كتاب كبير الحجم (٥٠٠ صفحة) يضم واحد وعشرين فصلاً في مسائل الهجرة والمغتربين. تناول سماحته الكثير من مسائل الابتلاء في الغرب بدءاً من العقائد والأخلاق، مروراً بممارسة العبادات، وانتهاءً باجتنااب الأعمال المحرمة في البيع والشراء والغش والتدليس والكذب والتحايل على القوانين الغربية.

■ **لقائي مع المرجع الحكيم**

كنت أعمل مديراً عاماً للثقاقات والاعلام في ديوان الوقف الشيعي وكنت عضوا في الهيئة العراقية للغذاء التي تشرف على إجراءات الذبح الشرعي . في ٣١ آذار عام ٢٠٠٤ سافرت إلى النجف وتوجهت مباشرة إلى منزل المرجع السيد محمد سعيد الحكيم، الذي يقع في حي الجديدة. هذا المسكن الزهيد في معماره، كان مقصداً لمختلف زوار مدينة النجف، من سياسيين وباحثين وإعلاميين وسفراء، من مختلف الأديان والمذاهب. حيث طالما استقبل المرجع الحكيم شخصيات من تيارات عدة، كانت تجد لديه القدرة على الحوار المنفتح دون قفد.

في إحدى المرات، زاره وفدٌ من رجال الدين المسيحيين، استقبلهم بحفاوة، وقال لهم: أنتم تبحثون عن الحقيقة، وأنا أبحث عن الحقيقة، فتعالوا نبحث عنها سوية.

المرجع الحكيم وحبه للحوار

وبحسب رواية القصة والذي كان حاضراً يقول: كان السيد الحكيم في هذا المجال شخصية غير تقليدية بالمعنى الكلاسيكي، فقد كان محباً للحوار مع مختلف العلماء والإعلاميين والباحثين. وكان يجلس ويستمع ويتحدث لهم بحيوية كبيرة، وكان مجلسه عامراً بزوار النجف. استقبلني ولده السيد رياض، ثم دخلت صالة واسعة هي (البراني)، سلمت على المرجع السيد الحكيم وكان طاعناً في السن، عليه آثار التعب البدني بسبب الفترة التي قضاها في سجون صدام. لكن روحه ونفسه كانت أريجحة ومنفتحة ومتفائلة. حدثته عن وظيفتي ومهمتي التي قدمت من أجلها، وأعطينته فكرة عن قضية الذبح الإسلامي والإشكالات التي ترافقها خاصة عندما تكون بعيدة عن الرقابة الشرعية.

■ قضية الذبح الإسلامي

ثم طرحت عليه مجموعة من الأسئلة أعددتها مسبقاً فأجابني حسب فتواه. وأكد على الذبح باليد وأهمية التسمية على الذبيحة واستقبال القبلة أثناء الذبح. وأما بالنسبة للحم المستورد فقد قال بأنه إذا كان مستورداً من دولة مسلمة ويحتمل أن يكون الذبح شرعياً فاللحم حلال. وإذا كان من بلد كافر أو من بلد مسلم وتعلم بأنه غير مذكى بالوجه الشرعي فهو حرام.

وحول هدف الهيئة العراقية للغذاء قال المرجع السيد الحكيم: إن الإشراف على الذبح في العراق هو أفضل لأن هناك تسامحاً كثيراً في الذبح حالياً، ويفضل أن تشكل لجنة للإشراف على هذا الأمر، بل قد يكون واجباً. وحول استيراد اللحم من الخارج قال سماحته: يفضل وجود مسلمين يشرفون على عملية الذبح. وبارك جهودنا في توفير اللحم الحلال للناس. ثم قال: أنتم أهل هذه البلاد وتعرفون أنها قفوة للناس وليس كسائر البلدان لما يمثله من أهمية وحيية وقديسية في نفوس المسلمين. ووجود العتبات المقدسة وخاصة مرقد أمير المؤمنين عليه السلام، فالحفاظ على قدسية البلد أمر هام.

■ **توضيح الأمور بنحو علمي**

والغريب أن السيد محمد سعيد الحكيم كرر أمامي مرتين جملة يقول فيها: (أنا عندما كنت في لندن للعلاج، كنت أكل اللحم وأنا مطمئن أنه حلال، أكثر من أكل اللحم مع الناس، وعليها رقابة شديدة، فلا تكذب على أهلها). لقد كان سماحته يوضح الأمور بشكل عملي، ويدعو إلى مراقبة اللحم الحلال في السوق العراقية، وضرورة اتخاذ كل الإجراءات للتأكد من أنه مذكى حسب الشريعة الإسلامية.

وفي ختام اللقاء سلمت على سماحته وأوصى بإعطائي عدداً من كتبه فقام ولده الصالح السيد رياض الحكيم بذلك ورافقتني حتى مغادرة المكتب.